

منهاج الذاتية الأدبية

للدكتور زكي مبارك

صديق ...

كُتبت إلىّ تسأل عن المراد من « الذاتية الأدبية » وهي كلمة بكثرة ورودها على سنان قلبي ، ثم تدعوني إلى رسم منهاج ، إن كان لها منهاج

وأجيب بأن الذاتية الأدبية هي أن تكون أنت أنت فيما تكتب وفيما تقول ، بحيث يشعر من يقرأ لك ، أو يستمع إليك ، أنك تنقل عن قلبك وضميرك ، وأن لك خصائص ذاتية لا يزاحمك فيها سواك ، وأنت لو نشرت مقالاً بدون إمضاء لم أعرفك الروح قبل أن يتم عليك الأسلوب ، فإن الأساليب قد تشابه في كثير من الأحيان تشابهاً يسمح بإضافة آثار كاتب إلى كاتب ، أو شاعر إلى شاعر ، أو مؤلف إلى مؤلف ، عند طي الأسماء

أما التشابه في الأرواح فهو نادر الوجود ، ولعله لا يقع إلا عند ضعف الأرواح ، كما تشابه الفرائز أو تتماثل عند صغار الطير والحيوان

ولتوضيح هذه النظرية أذكر بك بمعلقة امرئ القيس ومعلقة لبید ، بمعلقة امرئ القيس يمكن أن تضاف إلى غيره من الشعراء ، ويمكن لأي شاعر أن ينظم مثلها بلا عناء ، أما معلقة لبید فهي شعر لبید ، ولن يحاكيه فيها شاعر ، ولو قضى العمر في رياضة النفس على الاقتداء

وبفهم هذه النظرية تتضح مشكلة عجز عن حلها من تحدّثوا عن النحول من الشعر الجاهلي ، لأنهم يبنون أحكامهم على الأساليب لا على الأرواح ؛ فرقة الأسلوب هي عندهم خصيصة حضرية ، وجزالة الأسلوب خصيصة بدوية ، وعلى هذا يقاس ، كما صنع سعادة الدكتور طه بك حسين

الروح هو الأصل في تقدير القيم الأدبية ، وعن الروح يفرع الأسلوب . ولو شككت لقلت إن لكل كاتب أساليب تختلف باختلاف مقامات الإنشاء ، كما تختلف نظرات العيون

باختلاف مقامات الحديث ، وكما تختلف نبرات الأصوات لمثل تلك الأسباب ، ثم يبقى الروح الذي يدل على صاحبه في جميع الحالات بلا استثناء

فانظر أين أنت من هذه الحدود : أأنت عليك روحك ؟ أأنت عليك أسلوبك ؟ أأنت عليك التبعيّة الدليلة في الروح والأسلوب لأحد الكتّاب أو أحد الشعراء

أنظر أين أنت ، فأنا أحب أن أعرفك بالروح قبل أن أعرفك بالأسلوب ، وافهم جيداً أنه لا قيمة لأديب بلا روح ، روح أصيل تعرفه بسماه ، ولو أقبل عليك ملتماً مع ألوف من الأرواح

هل قرأت سورة يوسف ؟ في تلك السورة الكريمة آية صريحة في أن يعقوب وجد ربح يوسف قبل أن يصل القميص ، وأنه شق من عماء عند وصول القميص

فهل تفهم المراد من هذا الرمز الطريف ؟ هل تفهم كيف يدرك الأعمى أشياء بطريق لا سمع فيه ولا لمس ؟

هذا هو الروح الذي أحب أن تلتفت إليه في حياتك الأدبية ؛ الروح الذي يدل عليك من أول سطر ، أو من أول حرف ، قبل أن يرى القارئ اسمك في خاتمة مقالك ، فإن وصلت إلى هذا فأنت من أصحاب الذاتية

ولكن كيف تصل ؟ هنا يبدأ الحديث عن منهاج :

يجب أولاً أن تحرر عقلك وقلبك وروحك من جميع الأوهام والأباطيل والأضاليل . ومعنى هذه الوصية أنه يجب أن تنظر في جميع الأشياء وجميع المعاني نظرة استقلالية منزوعة عن الخضوع لنظرات من سبقوك ولو كانوا من أعظم الرجال ، لأن الغرض هو أن تصبح روحك جارية من الجوارح ، وهي لا تصير كذلك إلا إن عودتها الفهم والإدراك بلا وسيط . وهل تكون الروح أقل قيمة من الرجل ، يا بني آدم ، والرجل لا تمشي إلا إن عودناها المشي ؟

وإذا كان علم السباحة لا يُعرف بالوصف ، وإنما يُعرف

إرجع قبل أن تحترق ، أيها الخاطب لما يسمونه الأدب الرفيع
ولو أننى أملك الرجوع لرجعت ، فارجع أنت قبل أن
يصب عليك الرجوع ، وقبل أن تصير الاستثناء فوق ما تطيق
كان شيخنا العظيم « عبد الحميد بن يحيى الكاتب » زودنا
بصائح تحفظ كرامة رجال الأقلام ، فهل سمعنا وأطعنا ؟
هيهات ثم هيهات !

لا يخدعك السراب الخداع فتتوهم أن احتراف الأدب
أنفع من الاتجار بالتراب ، ولا تُطع المضللين من أدعياء الأدب
إلا إن ارتضيت إطاعة الشياطين

لقد نصحتك ونصحتك ثم نصحتك ، فإن رأيت أن هذا
النصح لم يؤثر في نفسك ، ولم يصدك عن عزمك ، فأقبل
ثم أقبل على الاحتراق باللب المقدس ، لب الأدب ، فتحن وحدنا
الأحياء ، ونحن وحدنا الخالدون ، ولأعدائنا الموت والفناء !
إن كلمة تُضمُّ إلى كلمة في ذكاء ولودعية أشرف وأعظم
وأنفع من كنوز تضاف إلى كنوز ؛ وإن جود الله بالفكر
والروح على من يصطفهم من عباده ، فهو أطيّب الهبات ،
وأكرم الأرزاق

أقسم الله بالقلم ، ولم يُقسم بالمال ، ونحن بالله مؤمنون !
هل رأيت الله يخلّي عن أدب سليم القلب قوى الروح ؟
لقد خرج المتنبي هارباً من مصر في ليلة عيد ، فكلم ألوفاً
من الدنانير أنفقت مصر في تعليم أبنائها حكمة المتنبي ؟

وقد مات محمد عبده بعلّة أورثه إياها عقوق معاصريه ، فكلم
ألوفاً من النفوس حاولت التشرف بأنها رائته قبل أن يموت ؟
وعانى مصطفى كامل الكاتب والخطيب أشدّات التهم الأوراثية ،
ثم كان من خصومه وحاسديه ومبغضيه من اشترك في صنع التمثال
ومرّت آلاف السنين ، والناس جميعاً يستوحشون من

الليل ، فكان غناء المصريين : يا ليل ... يا ليل ! !

صديقي :

أتراني شرحت المراد من الذاتية الأدبية ، ثم رسمت لك
المهاج ؟

هذه ومضة من ومضات ، وسأرجع إلى إرشادك بالتفصيل ،
حين أطمئن إلى أنك أحد الأوفياء بالعهود .

نذك مبارك

بالتدريب على مغالبة الماء في أيام أو أسابيع ، قِلمُ الروح
لا يُدرك بالوصف ، وإنما يدرك بتدريب الروح على التدوُّق
والفهم في أعوام أو أزمان

أراد سائح عبور النيل ففرق ، وأراد سائح عبور المائش
فنجح ، مع أن السابحين توأمان . فكيف نجح هذا وغرق ذاك ؟
يرجع الفرق إلى اختلاف التمرين والتدريب . وما يقال
في القوة الجسمية يقال في القوة الروحية . فعاددُ روحك بالتمرين
والتدريب في كل وقت ، واحفظها من الغفلة عن إدراك دقائق
الفروق بين الأشياء والمعاني ، وعودها التفكير في جميع ما ترى
عينك ، وما تسمع أذنك ، وما يهيج به الخاطر في اليقظة
أو في المنام ، فالنوم كلة سوقيّة وليس له مع حياة الروح وجود
إن عملت بهذه الوصية عاماً أو عامين ظفرت حتماً بالحاسة
الدوقية ، وهي مفتاح الظفر بالذاتية الأدبية ، فتوكل على الله
وابداً من هذا اليوم

ويجب ثانياً أن توطّن النفس على القربة الأبدية ، ولو كنت
في دارك وبين أهلك ، فالفكرون في جميع العصور غرباء
لن يكون لك ظهير غير قلمك ، ولن يكون لك نصير غير
روحك ، فاعرف أين تضع قدمك قبل أن تخاطر بنفسك فتصحب
رجال القلم البليغ

إن صحبنا متعبة ومضنية ومؤذية ، لأن طريقنا أشواك
من تحتها أشواك ، وقد رحبنا بالظلم والجور ، وبما هو أفنك
من الظلم والجور ، في سبيل الذاتية الأدبية ، فانظر كيف تصنع
إذا ضَعُفَت عن السير في بداية الطريق ، أو في منتصف الطريق ،
طريق الموت أو الخلود

أنا أرحمك فأشاك عن الاحتراق بنار الأدب ، وليتني وجدت
من ينهاني قبل أن أحترق !

إن صريع الأمواج يجد من يعدّ له يد الإقناذ والإغاثة ،
أما صريع النيران فلا منقذ له ولا مفيت ، ونحن صرعى النيران
لا الأمواج

إن اللصوص يتماطفون فلا يشهد بعضهم على بعض ،
ولا يكيد أحدهم لأخيه ، ولنا لصوماً حتى نمدك ونختيك ،
وإنما نحن أدباء بكتب أهدنا لزميله صحيفة الاتهام ، بلا تورع
ولا استحياء